نحو نظرية اسلامي

مقدمة وتعريفات

تتناول هذه الدراسة قضية فكرية هامة وهي تنظيم المعرفة عند المسلمين • وقد يكون من المفيد ان نبدا بتحديد مفهوم واضح لتنظيم المعرفة قبل أن نتناول القضية الاساسية من الدراسة وقد يجرنا هذا الى تعريف بعض الالفاظ التي سوف نستعملها •

تنظيم المعرفة

يقصد بتنظيم المعرفة Organization of Knowledge المحاولات التي قام بها العلماء والفلاسفة وعلماء المكتبات والمعلومات وغيرهم على مر العصور لتصنيف العلوم وتصنيف المعرفة والكتب • وقد استعمل اللفظ هنري افلين بليس H.E. Bliss عالم التصنيف الامريكي في عنوانين لكتابين من كتبه :

1. The organization of knowledge and the system of the sciences (1929). (تنظيم المعرفة ونظام العلوم)

ـة لتنظيم المعرفة

● **للدكتور : عبد الوهاب عبد السلام أبو النور**

2. The organization of knowledge in libraries and the subject approach to books (1939).

(تنظيم المعرفة في المكتبات والمعالجة الموضوعية للكتب)

وقد تتبع في أولهما المحاولات التي بها العلماء لاعداد تصانيف للمعرفة والعلوم على مـر العصور تمهيدا للوصول الى نظرية خـاصة بتنظيم المعرفة بصورة معينة ، وهو ما أسماه باصطلاح العلماء والتربويين Educationed and Scientific Consensus·

وفي كتابه الثاني درس أنظمة التصنيف التي كانت تستعمل في المكتبات حين صدور الكتاب ، كما نقد هذه الأنظمة ، ودرس المفاهيم الاساسية للتصنيف ووضع في النهايـة نظريـة أو أساسا لتصنيف المكتبـات بنـى عليهـا فيمـا بعد تصنيفه الببليوجرافي · ومن هذا يتضح أن تنظيم المعرفة ذو شقين :

١ ــ تصانيف الفلاسفة والعلماء ·

٢ ــ وتصنيف المكتبات ·

وهما مرتبطان ارتباطا قويا (١) · وتنبني نظرية بليس على الربط بينهما · وليس هنا مجال مناقشة آراء بليس عـن الاصطلاح أو عن ارتباط تصنيف المعرفة بتصنيف الكتـب ولكننـا أردنـا فقط الخـروج بتعريف لتنظيم المعرفـة وعلاقته بالتصنيف (٢) ·

وفي سنة ١٩٦٥ أصدر نيدهام وهو من أساتذة التصنيف في ليفربول كتابا يحمل العنوان التالي :

The organizing of knowledge in libraries

وهو يقارب كتاب بليس الثاني من حيث العنوان الامر الذي قد يوحي بأن المحتوى متشابه ، ولكن نيوهام يختلف اختلافا كبيرا عن بليس ، فهو يعني بوظيفة التنظيم في المكتبة أساسا · وقد أصبحت وظيفة التنظيم في المكتبة تشمل كل عناصر الاعداد سواء منها ما كان شكليا يعني بالملامح المادية للمواد أو ما كان منها موضوعيا يعني بالمحتوى الفكري · وقد اصطلح على تسمية الجانب الاول بالفهرسة الوصفية ، واصطلح على تسمية الثاني بالفهرسة الموضوعية · وتضم الاخيرة محورين : التصنيف ورؤوس الموضوعات · وترتيب الاخيرة هو الترتيب الألفبائي أما الاول فيتخذ الترتيب العلمي ، وهو الذي ينطبق عليه مفهوم تنظيم المعرفة بصفة خاصة اذ ان الترتيب الألفبائي لا يهتم بالجانب العلمي وانما يهتم بالترتيب العرضي · ولذلك فان الذي يعنينا هنا من عناصر التنظيم هو التصنيف ·

والتصنيف Classification هو بالمعنى العام جمع الاشياء المتشابهة وفصل الاشياء غير المتشابهة · ويتحدد التشابه والاختلاف على أساس امتلاك الاشياء أو عدم امتلاكها لصفة جوهرية تسمى الخاصية Characteristic

وهناك تطبيقات متنوعة لهذ االتعريف في مجالات مختلفة :

فالتصنيف الفلسفي Philosophical هو المحاولات التي قام بها الفلاسفة لتصنيف المعرفة ، ولم يكن لهذا النوع من التصنيف غاية عملية يبتغيها الفيلسوف ، بل كان مجرد رياضة عقلية يعرض من خلالها تصوره لتنظيم المعرفة ، وتعد جزءا من فلسفة ، ولم يكن هذا بهدف الاستعمال في المكتبات ·

والتصنيف العلمي Scientific هو نوع من التصنيف يصدق على تصنيف الكائنات الحية بصفة خاصة · وهو يعرف باسم Taxonomy أي تصانيف الاحياء · وهناك أمثلة كثيرة على هذه التصانيف في علوم النبات والحيوان خاصة · وقد كان الغرض منها مساعدة العلماء في نسبة مكتشفاتهم الجديدة من النباتات والحيوانات · ففي هذا النوع من التصنيف تقسم الكائنات الحية (النباتات والحيوانات) وفقا للصفات التشريحية لها الى رتب وطبقات وطوائف وفصائل معينة · ويسجل عن كل فصيلة أو طائفة سلسلة من الخصائص يمتلكها أفرادها · وحينما يظهر كائن جديد يكتشفه العلماء يقومون بتشريحه ·

وبمقارنة سلسلة الخصائص التي لهذا الكائن مع الخصائص المختلفة لكل فصيلة أو طائفة يمكن معرفة الفصيلة التي ينتمي اليهـا الكائن الجديد ، أي يمكن تصنيفه ونسبته الى القسم الاكبر الذي ينتمي اليه •

وقد كانت هذه العملية مفيدة للعلوم الطبيعية وساهمت في تقدمها • ورغم ان غاية هذا النوع من التصنيف غاية عملية ، الا أن الغرض منه كان خدمة العلوم الطبيعية ومن ثم فهو يعد جزءا منها ولا يتعداها الى الاستعمال في المكتبات • وهناك نماذج كثيرة من التصانيف العلمية (٣) •

أما تصنيـف الكتـب Book Classification أو التصنيـف الببليوجرافي Bibliographic فهو يهدف الى جمع الكتب والمواد التي تعالج موضوعا واحدا في مكان واحد من رفوف المكتبة أو فهارسها أو مـن الببليوجرافيات المختلفة التي ترتـب بالمـوضوع • وقـد أطلق عليـه تسميات أخرى منهـا تصنيـف المكتبات Bibliothetical, Library class وتصنيف الوثائق Documentery وتصنيـف المعلومـات Information ، وأخيـرا التصنيـف لأغراض تنظيـم واسترجاع المعلومات (٤) • والتسميات جميعا تصدق على تصنيف الكتب وغيرها من أوعية المعلومات • وحيثما توجد المعلومات فلا بد من التنظيم ، اذ لا بد ان العلماء سوف يطلبون المعلومات من خلال الموضوع ، أي سوف يطلبون معلومات في موضوع معين ، ولذلك فان التصنيف قديم قدم المعلومات نفسها • ولكن التسميات السابقة حديثة نسبيا ، فقد وجد رجال المكتبـات أن التصنيف يستعمل في العلوم الطبيعية بنجاح فارادوا هم أيضا أن يستفيدوا منه في عملهم ، اذ أنهم يهتمون كذلك بتنظيم العلوم والمعارف المسجلة في الكتـب • كمـا أن العصر كـان عصر العلوم الطبيعية وكانت المجالات المختلفة تحاول أن تحذو حذوها في الطرق والمناهـج • ولذلك لجـأ رجال المكتبات في المرحلة الاولى الى تصنيف العلوم • ولمـا كانت هذه التصانيف تعتمد اعتمادا كبيرا على التصنيف المنطقي دخلت الأسس الفلسفية والنظرية للتصنيف الى تصنيف الكتب •

وحينما دخل التصنيف بالمفهوم الحديث الـى عالم المكتبات كانـت الوحدة الببليوجرافية السائدة والمقبولة هي الكتاب ، ولذلك ارتبطت التسمية بـه فقلنا تصنيف الكتـب والمكتبات ، كمـا قلنا التصنيف الببليوجرافي للتفرقـة بينه وبين التصنيف الفلسفي والتصنيف العلمي •

ولكن في العقود الاخيرة بدأت أوعية جديدة للمعلومات تظهر وتحتل مكانها في عالم النشر والبحث ، مثل المجلات والابحاث والتقارير ، والأفلام ، والمصغرات العلمية وغيرها · ولذلك كان من الضروري أن يعبر علم المكتبات عن هذه التطورات فاعتبرت هذه جميعا وثائق تضم معلومات · ومن هنا جاءت التسمية : تصنيف الوثائق ، ثم التصنيف لأغراض تنظيم واسترجاع المعلومات · بل ان علم المكتبات نفسه قد عبر في تسميته عن هذه التطورات فأصبح علم المكتبات والمعلومات ، أو علم المعلومات فقط ·

وقد قام علماء تصنيف المكتبات باعداد عدد من التصانيف او الانظمة التي تطبق في المكتبات على وحدات الانتاج الفكري · وأصبح التصنيف من أهم فروع علم المكتبات ان لم يكن أهمها على الاطلاق · وذلك لأنه يعني بالمحتوى الفكري للوثائق · وهو ـ أي المحتوى ـ هو السبب الذي من أجله تقتنى الكتب والوثائق ومن أجله تنظم وتستعار ، بل من أجله نشا علم المكتبات أصلا · ولما كان التصنيف يعتمد على الخاصية الجوهرية ، وهي هنا المحتوى الفكري أو الموضوع ، بأن كلمة تصنيف الكتب تعني تنظيمها بالموضوع وليس بأية طريقة أخرى من طرق الترتيب ·

ونظام التصنيف أو خطته System or Sheme هو الأداة التي يستعملها المصنفون لتعيين أرقام التصنيف للموضوعات المختلفة · وهو نوعان :

التصنيف العام أو الشامل General والخاص أو المتخصص Special والاول يضم كل فروع المعرفة البشرية ، والثاني يضم فرعا واحدا منها فقط ·

التصنيف في المكتبات العربية :

مما لا شك فيه أن العرب قد عرفوا التصنيف ، فحيث توجد المكتبات يوجد التصنيف · وقد كانت المكتبات مزدهرة في العالم الاسلامي ، وعليها اعتمدت النهضة العلمية التي وصلت الى القمة في قرون قليلة · ولكن الدراسات التي تعرضت لتاريخ المكتبات في الاسلام ـ على قيمتها وأهميتها ـ لم تهتم اهتماما كبيرا بالجوانب الفنية ، بل اهتمت بالمكتبات نفسها كظاهرة علمية حضارية أو تربوية · وقد جاءت دراسات كثيرة منها وسط كتب تؤرخ للحياة العقلية عند المسلمين ، أو الحياة التربوية ، أوفي كتب التاريخ والخطط والأدب والتراجم · ولا زلنا بحاجة الى دراسة معمقة للجوانب الفنية في المكتبة الاسلامية على ضوء علم المكتبات الحديث ، من حيث الفهرسة والتصنيف ، الخ ·

ولو أننا اعتمدنا في تقدير حالة تصنيف المكتبات الاسلامية على ما تضمنته المصادر المختلفة عن التصنيف عند العرب ، لأمكننا أن نفترض أن التصنيف في المكتبات الاسلامية كان على درجة عالية من الرقي · فقد حفلت المصادر الاسلامية بالتصانيف التي أعدها الفلاسفة والببليوجرافيون والعلماء ابتداء من القرن الرابع الهجري وحتى وصلت الى ذروتها في القرن العاشر · بل لقد رفع العلماء المسلمون التصنيف الى مرتبة العلم حيث جعله طاش كبري زادة واحدا من العلوم الثلاثمائة التي اشتمل عليها مفتاح السعادة وأسماه علم تقاسيم العلوم · ولقد زاد على ذلك تعرفة على طريقتين من طرائق التصنيف هما في الحقيقة أهم ما أدركه العقل الانساني في هذا الصدد وحتى عصرنا الحاضر ، بل أن طريقة التحليل عند طاش كبري زادة تماثل أحدث الطرق العلمية في التصنيف والتي لا تزال قيد الدراسة والبحث في لندن في الوقت الراهن ·

ولا شك أن هذه هي صورة التصنيف عند المسلمين لأن طاش كبري زادة لا يأتي بشيء من اختراعه وانما هو مسجل أمين لحالة العلوم عند العرب والمسلمين ، ولولا أنه وجد تراثا فكريا قويا في الموضوع لما جعله فرعا من الفروع التي سجلها قائمة برأسها · وقد يتضح هذا أكثر عند الحديث على التصنيف الاسلامي فيما بعد·

وقد كان هذا هو شأن التصنيف ابان عصر الحضارة الاسلامية الزاهر ، ولكن الامور لم تستمر على هذا النحو ، اذ عملت عوامل متعددة على تأخر المسلمين وعلى انتقال زمام الحضارة والتقدم الى الغرب فنشأت العلوم الحديثة وقطعت شوطا بعيدا في طريق التقدم ·

وقد بدأنا في العصر الحديث نحاول تعويض التخلف وسد الفجوة التي تفصلنا عن الأمم المتقدمة ، وكان لا بد من ادخال العلوم الحديثة فوفدنا اليها أو وفدت الينا، ادراكا منا لأهمية العلم في صنع التقدم ·

وقد كان علم المكتبات من العلوم التي وفدت الينا من جديد ، فدخل الى أوطاننا على المستوى الأكاديمي متمثلا في انشاء دراسات أكاديمية في الجامعات العربية ، وعلى المستوى التطبيقي متمثلا في محاولة المكتبات العربية تطبيق الممارسات الحديثة ·

واذا كان التقدم الحضاري يعتمد على العلم ، فان العلم لا يمكن أن ينهض بدون المكتبات والمعلومات والخدمات الببليوجرافية · وهي تهدف الى توصيل المعلومات المناسبة للقارىء المناسب في الوقت المناسب وبالقدر المناسب · وتحقيق هذا لا يتم الا بالتنظيم ، والتصنيف قوام عملية التنظيم وأساسها ولبها لأنه كما ذكرنا يهتم بالمحتوى الفكري الذي من أجله تقتنى المعلومات أصلا ·

لذلك كان من الضروري ، ومع بداية دخول علم المكتبات نظريا وتطبيقيا ، أن تثار قضية التصنيف ، أي بماذا تصنف المكتبات العربية · بل لعل هذه القضية كانت ولا تزال أهم القضايا التي تهتم بها المكتبات العربية باعتبار التصنيف أهم الركائز التي يستند اليها العمل في المكتبات ، وباعتبار غايته هي خدمة الباحثين والعلماء في آلاف المكتبات في الوطن العربي على امتداده ·

وللاجابة على السؤال فلا بد من دراسة ثلاثة بدائل :

١ – اختيار أحد الأنظمة الاجنبية وتطبيقه كما هو ·

٢ – اختيار أحد الأنظمة الاجنبية وتطبيقه بعد تعديله ·

٣ – اعداد نظام عربي لحما ودما ينبع من احتياجات المكتبات العربية ويوفر بكفاية للموضوعات العربية والاسلامية ويعبر عن الفكر العربي الاسلامي ·

ودراسة البدائل الثلاثة تتطلب ما يأتي :

١ – دراسة أنظمة التصنيف الأجنبية دراسة نقدية ومقارنة لمعرفة هل تصلح كما هي للتطبيق في المكتبات العربية ·

٢ – دراسة المحاولات العربية في التصنيف سواء كانت تعديلات لأنظمة أجنبية أم كانت نظما خاصة ببعض المكتبات ·

٣ – دراسة نظرية التصنيف ، وهي المنهج الذي وضعه علماء التصنيف لكي تبنى على أساسه وتقيم أنظمة التصنيف ، ثم عرض الانظمة الاجنبية عليها لمعرفة هل تصلح من وجهة نظر المنهج أم لا ·

٤ ـ دراسة التراث الفكري العربي والاسلامي في موضوع التصنيف من جهة وفي الموضوعات الاخرى من جهة أخرى لمعرفة الى أي حد نتفق أو نختلف مع الثقافات الاخرى • وقد تمت دراسة من النوع السابق منذ عشر سنوات ولسنا نريد الاطالة بايراد أية تفاصيل ولكن ما نود أن نقوله هنا هو أن الدراسة المشار اليها (٥) قد خلصت الى النتائج الآتية :

أولا : ان أنظمة التصنيف الاجنبية لا تصلح كما هي للمكتبات العربية :

١ ـ فهي باعتبارها أدوات للتنظيم المقنن للمعرفة تتبع اطارا عقيما لتنظيم المعرفة ولا تتوافق مع المعرفة الحديثة، الانظمة الاجنبية ـ فيما عدا تصنيف الكولون لرانجاناثان عالم التصنيف الهندي ـ خطط حاضرة والمعرفة الحديثة معرفة تحليلية تركيبية • فالموضوعات الجديدة لا تنمو من خلال الانشطار أو التقسيم فقط ولكنها تنمو من خلال الاندماج أو الالتحام مكونة موضوعات مركبة جديدة • ولا شيء يمكن أن يدلنا على أي العناصر سوف تلتحم معا اليوم أو غدا لأننا لا يمكن أن نتوقع الارتباطات الموضوعية الجديدة التي سيكتب فيها المؤلفون والعلاقات الجديدة التي سينتهجها البحث العلمي ، ومن ثم لا يمكن أن نعين سلفا عددا من القوالب الموضوعية التي يجب أن تقحم فيها الموضوعات • وانما يجب أن تكون ثمة طريقة تتوافق مع الطريقة التي تنحو بها المعرفة • وهذه الطريقة هي الربط الحر للعناصر التي تتألف منها الموضوعات حيثما تظهر في الانتاج الفكري • وهو ما يعرف بالتركيب ، أي تحليل الموضوعات ثم تركيبها • وهو ما يعرف بالتصنيف التحليلي التركيبي أو المتعدد الأوجه • ورغم أن تصنيف الكولون يسير وفق هذا الاتجاه الا أنه لا زال معمل بحث أكثر منه خطة مكتملة يمكن العمل بها في المكتبات • وخطط التصنيف العامة الاخرى هي من النوع الحاضر الذي يحدد قوالب جاهزة لتصنيف الانتاج الفكري ، ومن ثم فهي لا تتوافق مع الطريقة التي تنمو بها المعرفة وتتكون بها الموضوعات المركبة الجديدة •

٢ ـ ان أنظمة التصنيف الاجنبية لا تعالج بكفاية الموضوعات العربية والاسلامية • لقد أعدت هذه الانظمة لثقافات ومكتبات مختلفة عن ثقافتنا• ومن حقها أن توفر للموضوعات التي تكون ثقافتها وتراثها وان تجعل هذه الموضوعات في المقدمة ، وأن توفر لها المكان المناسب والكافي • وهذا

لا بد أن يكون على حساب الموضوعات التي تكون ثقافات وأديان البلاد الاخرى . واذا كانت هذه الخطط على صواب فيما تفعله بالنسبة لثقافاتها وأديانها فان الخطأ كل الخطأ هو في محاولة تطبيقها ـ وحالها تلك ـ على ثقافتنا وديننا . فهي تضع الاسلام ضمن الديانات الاخرى موفرة له مكانا واحدا مقابل سبعين مكانا للمسيحية ، ونفس الشيء يصدق على اللغة العربية والادب العربي اذ يوضعان في الموضوعات الاخرى ـ أما التاريخ فينطوي تصنيفها له على أخطاء كثيرة .

هذا فضلا عن أن الاطار العام الذي يضم تلك التفاصيل يختلف عن الاطار العام للثقافة الاسلامية . وهذا ما سوف نفصله فيما بعد .

ثانيا : الاعمال العربية في التصنيف نوعان :

أنظمة خاصة ببعض المكتبات مثل دار الكتب بالقاهرة ومكتبة الأزهر بالقاهرة أيضا .

وتعديلات لبعض الانظمة الاجنبية انصبت كلها على الموجز الثالث للتصنيف العشرين لديوي فيما عدا عمل واحد انصب على الطبعة الثامنة الموجزة (١٩٥٩) .

وهذه الاعمال لا تصلح هي الاخرى :

١ ـ فالأنظمة الخاصة لا ترقى الى مستوى خطط التصنيف الحديثة ولا تضم من خصائص التصنيف الحديث قليلا أو كثيرا . وهي مجرد رؤوس موضوعات واسعة جدا لا تضم التفاصيل المطلوبة لتصنيف الانتاج الفكري الحديث ، ولا رمز لها ترقم به الموضوعات ولا كشاف .

٢ ـ التعديلات العربية لموجز التصنيف العشري اعتمدت على التصنيف العشري وهو خطة معيبة أصلا . وقد حملت كل عيوب الأصل وأضافت اليه المزيد وليس بوسعنا هنا أن نفصل في هذا الصدد منعا للاطالة (٦) .

ثالثا : يبقى البديل الاول وهو اعداد خطة عربية عامة للتصنيف . وهذا هو أصعب البدائل ولكنه أفضلها لأنه يحقق آمال المكتبات العربية ويضع حدا لحالة

الفوضى في الممارسة والتي تعاني منها • وكل من يعمل بالتصنيف في المكتبات العربية يقدر قيمة هذا الكلام ، فهم يعبرون دائما عن عدم الرضا عن الأدوات الموجودة •

هذا فضلا عن أن لنا تراثا تصنيفيا حافلا كما سوف يتضح بعد قليل ، ولنا في الموضوعات العربية والاسلامية تراث يجب أن يكون أساس اعداد تصانيف هذه الموضوعات •

الخطة العربية للتصنيف :

أما وقد استقر بنا الرأي على أن نتخذ موقف التأصيل باعداد خطة عربية كاملة للتصنيف وليس موقف التعديل ، فقد كان ولا بد من مزيد من الدراسات :

١ ــ ما هو المنهج الذي سوف تبنى عليه الخطة العربية •

٢ ــ ما هو الاطار العام للخطة ، بمعنى ما هي الاقسام الرئيسية للخطة والاطار الفكري الذي سوف ينتظمها •

٣ ــ ما هي الموضوعات التي ستعد لها تصانيف أصيلة ، وما هي الموضوعات التي يمكن الاستفادة فيها من انجازات الآخرين •

والتسلسل السابق هو التسلسل المنطقي لمراحل اعداد الخطة العربية للتصنيف، فلا بد من أن نحدد أولا الأسس والمنهج ، ثم نحدد الاطار العام وذلك من خلال تعيين الاقسام الرئيسية للخطة ثم ترتيبها ، ثم تحديد العلاقات بين المجالات الموضوعية المختلفة ، الخ • ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي اعداد التصانيف لعدد من العلوم العربية والاسلامية الاصيلة والتي هي من مسئوليتنا نحن ، وهي الدين واللغة والادب والتاريخ والجغرافيا ، ثم المرحلة الاخيرة وهي اعداد تصانيف لبقية الموضوعات •

وقد حدث تخالف في هذا التسلسل لظروف خاصة ، فقد بدأ تحديد المنهج وتعميقه ثم تطبيقه في اعداد تصنيف لعلوم الدين الاسلامي ، وذلك قبل تحديد الاطار العام للخطة (٧) • ولم تكن ملامح النظرية الاسلامية في تنظيم المعرفة قد وضحت

او كتبت بعد . ولكن كان الافتراض الاساسي وقتها هو أن الدين الاسلامي يجب أن يسبق غيره من الموضوعات في خطة التصنيف العربية وذلك لمكانة الاسلام في نفوس المسلمين وفي المنهج التربوي عندهم . وكل أنظمة التصنيف الاجنبية تبدأ بالفلسفة وهي تضم كتب الالحاد . والقارىء المسلم يكره أن يرى كتب الالحاد تسبق كتب الاسلام وهي تضم علوم القرآن الكريم ، فهو يكره أن يرى على رفوف مكتبة كتب الالحاد تسبق الكتاب العزيز .

على أي حال فقد تم اعداد تصنيف مفصل لعلوم الدين الاسلامي على أساس المنهج الحديث في اعداد قوائم التصنيف ، وهو المنهج التحليلي التركيبي ، ثم أعطيت قوائم التصنيف المفصلة لعلوم الدين الاسلامي (٨) .

وقد خطت الخطة العربية بعد هذا خطوات أخرى ، فقد أوصى مؤتمر الاعداد الببليوجرافي الاول للكتاب العربي (الرياض في نوفمبر / ديسمبر ١٩٧٣) بتجريب الخطة العربية للتصنيف مبتدئة بعلو مالدين الاسلامي (٩) . وهكذا خرجت الخطة الى نطاق التطبيق والتجريب (١٠) .

والمفروض أن تستمر عملية اعداد تصانيف الموضوعات العربية الاسلامية بعد الاسلام ، مثل اللغة والادب ، الخ . وهذا يستلزم وضع الاطار العام للخطة وتحديد العلاقات بين الموضوعات وترتيب الموضوعات فيما بينها ، وهو ما يعرف بقضية ترتيب الاقسام الرئيسية . والحقيقة أنه في هذه النقطة بالذات تبدو أهمية اتباع النظرة الاسلامية الى تقسيم العلوم وترتيبها . وقد حاولنا ذلك من خلال دراسة معمقة للفكر الاسلامي في هذه النقطة والحياة العقلية للمسلمين وأمكن في النهاية الخروج بنظرية لتنظيم المعرفة عند المسلمين من خلال ضم الجزئيات والشذرات التي وجدناها .

وحتى لا تطول الصفحات فسوف أركز على هذه القضية وحدها من قضايا الخطة العربية للتصنيف فيما تبقى من صفحات هذه الدراسة .

الاقسام الرئيسية لخطة التصنيف العربية

الخطوة الاولى في بناء نظام التصنيف العام هي تقسيم عالم المعرفة الى عدد من الأقسام تسمى الاقسام الرئيسية . وهذه لا تزال هي الطريقة السائدة والمتفق عليها حتى الآن ، مهما اختلف المنهج فيما وراء الاقسام الرئيسية . وعلى هذا جرى

أصحاب الخطط العامة السبع التي أنتجت حتى الآن بما فيهم رانجاناتان صاحب تصنيف الكولون ·

وقد جرت محاولتان لنبذ فكرة الاقسام الرئيسية واجراء التحليل على المعرفة ككل وبصورة مباشرة · حدث هذا من جاستون فرادان في الخمسينات ، ومن ديريك أوستن وجماعته والذين يحاولون اعداد تصنيف عام في داخل الببليوجرافية الوطنية البريطانية · وقد عرضت لهذه القضية في أماكن أخرى ولا داعي لاطالة الصفحات الآن بها · غاية ما أود أن أذكره الآن هو أن جهود الجماعة البريطانية في هذا الصدد لا زالت بحثا أكثر منها حقيقة مجسدة ، ومن ثم فحتى اذا حاولنا تقويمها فاننا نقومها في هذا الاطار : كافكار قيد البحث وليست شيئا محسوسا · ولذلك فاننا نبقى على فكرة الاقسام الرئيسية لخطة التصنيف العربية كتقليد مستمر ومستقر حتى الآن (١١) ·

القسم الرئيسي

القسم Class هو عدد من الاشياء أو المفردات التي تمتلك جميعا صفة واحدة ، هو كل الاشياء التي ترتبط أو ارتبطت أو يمكن أن ترتبط بواسطة التشابه ، وتتباعد بواسطة الاختلاف ، عن كل الاشياء الاخرى في الطباع والخواص والعلاقات الجوهرية والهامة والانتقائية التي تعرف بها (١٢) ·

والقسم بهذا المعنى لا يقتصر على الاقسام الرئيسية فقط ، ولكنه يعني كذلك الرتب أو الاقسام الأصغر · وقد عرف التراث العربي لفظ القسم بهذا المفهوم الفلسفي والمنطقي ، فهذا ابن سينا أسمى رسالة له : أقسام العلوم العقلية ، وكذلك فان العلماء كانوا يطلبون من المؤلفين في مقدمات كتبهم تعيين أقسام العلم ، كما أن طاش كبري زادة قد سمى علم التصنيف علم تقاسيم العلوم ، وهو مشتق من القسم ·

وان تعريف القسم الرئيسي Maim Class من الصعوبة بمكان ، وهو مصطلح يستعمل بكثرة للتعبير عن المجالات الرئيسية للمعرفة ، ولكن ليس هناك تعريف مستقر أو كاف للقسم الرئيسي لا عند علماء التصنيف ولا عند أصحاب الخطط العامة ، حتى عند بليس ، وهو الذي حظيت عنده قضية الاقسام وترتيبها

باكبر قدر من الاهتمام . ويؤكد هذه الحقيقة أن عدد الاقسام الرئيسية في خطط التصنيف المختلفة يختلف اختلافا كبيرا ، اذ هو يرتبط بعدد الرموز المتاحة . ولو كان ثمة تعريف واضح ومتفق عليه للقسم الرئيسي لما حدث هذا الاختلاف لأن الجميع يقسمون عالما واحدا هو عالم المعرفة ، كما أن ناتج التقسيم وهو الاقسام الرئيسية في خطة التصنيف يشتمل على المعرفة جميعا حتى وان اختلف العدد من خطته الاخرى . فاقسام كتر أو براون أو بليس أو مكتبة الكونجرس أو رانجاناتان هي في مجموعها متفقة من حيث المحتوى وان تفاوت محتوى وعدد الاقسام كل على حدة . وهذا يدل على أنه لا يوجد معيار يحدد بمقتضاه طريقة اشتقاق أو تكوين القسم الرئيسي .

والمفروض أن نبدأ بتعريف القسم الرئيسي ووضع معيار محدد له ، ثم نمضي في تطبيق هذا المعيار في تكوين الأقسام الرئيسية دون الخضوع لاحتياجات الرمز ، ثم تدبير الرمز المناسب الذي يكفي لعملية الترقيم . ولكن المشكلة هي أن عدد الرموز المتاحة محدود ، ومن ثم فلا بد أن تتأثر الاقسام الرئيسية بعدد الرموز المتاحة . فالحقيقة هي أن الاقسام الرئيسية في خطط التصنيف المختلفة ليست أقساما للمعرفة بل هي أقسام رمزية . والدليل على ذلك أن عددها يتفاوت : فهي في ديوي تسعة وقسم عام ، وفي بليس ٥٣ قسما ، وفي مكتبة الكونجرس ٢١ قسما ، وفي كتر قريب من ذلك ، وفي ط ٧ من الكولون ١٠٦ قسما رئيسيا . وهي مرتبطة بالرموز التي استخدمتها كل خطة . فاستعمل ديوي الأعداد وحدها وكان أمامه عشرة أماكن ، ومكتبة الكونجرس وكتر استخدما الحروف وحدها (للأقسام) فكان أمامهما ٢٦ قسما . أما بليس فقد استعمل الحروف الكبيرة والصغيرة والأعداد فكان أمامه مدى رمزي أكبر . وقد استعمل رانجاناتان كل هذه وأضاف اليها علامات أخرى ولذلك جاء العدد عنده أكبر .

ولو كانت الاقسام الرئيسية معرفة تعريفا كافيا على المستوى الذهني لما حدث هذا التفاوت ، ولكنها تقليد مرتبط بعدد الرموز المستعملة .

وقد كان من الضروري معالجة هذه القضية بالنسبة للخطة العربية للتصنيف ، بمعنى : ما هو القسم الرئيسي ، وما هي الاقسام بالنسبة للخطة العربية ، ثم ما هو ترتيب هذه الاقسام فيما بينها .

وقد وضعنا التعريف التالي للقسم الرئيسي :

القسم الرئيسي من أقسام المعرفة هو مجال أو دراسة متمايزة عن غيرها ومتجانسة فيما بينها ، فتكون الدراسة متمايزة بحيث لا يدخل فيها غيرها ولا تختلط باقسام أخرى ويكون محتواها متجانسا · وقد لا يكون هذا التعريف قاطعا وكافيا لكل أغراض تصنيف المعلومات ولكنه ربما كان يصلح على الاقل للطبقة الاولى من خطة التصنيف ويصلح أساسا لعزل الاقسام الرئيسية للمعرفة ·

وقد قمنا بدراسة مقارنة لمفهوم القسم الرئيسي على المستوى الذهني وفي خطط التصنيف المختلفة · وقد خرجنا من الدراسة بقائمة للأقسام الرئيسية وأضفنا اليها الدراسات العربية والاسلامية الرئيسية كأقسام مستقلة (١٣) ·

ترتيب الأقسام الرئيسية في خطة التصنيف العربية والنظرية الاسلامية لتنظيم المعرفة ·

بعد تحديد قائمة الاقسام الرئيسية فان الخطوة التالية هي ترتيب هذه الاقسام ، بمعنى تحديد تسلسل ترتب بمقتضاه الاقسام في القائمة · ولا شك أن هناك ترتيبا أفضل من ترتيب اخر · وقد كان من الضروري تعرف الجذور والتأثيرات الثقافية التي تخضع لها عملية ترتيب الاقسام الرئيسية · واذا كنا قد بدأنا بالاسلام فقد كان من الضروري تكملة التسلسل من جهة واكتشاف الاساس العقلي والعلمي للعملية كلها · والبعض لا يهتم بهذه القضية ويرون تطبيق نظام أجنبي ولا يجدون بأسا في أن تكون الفلسفة هي أول الاقسام في خطة تصنف بها المكتبات العربية (١٤) ·

لقد وضعت منذ عشر سنوات تقريبا افتراضا سجلته في مقدمة كتاب مفتاح السعادة فقد كتبت في تلك المقدمة مبحثا عن التصنيف عند العرب ، وعددت الاسباب التي تدعونا لدراسة تاريخ التصنيف ، فكتبت في ذلك الحين :

« وفوق ذلك : فان نظم تصنيف المعرفة تعد صورة للحياة العقلية لدى أصحابها وعند الأمة التي نشأت فيها وفي العصر الذي وضعت فيه ، هي مرآة تنعكس

عليها الحياة العقلية وصورة للنظام التربوي عند هؤلاء الاقوام في العصور الثقافية المختلفة ، وهي صورة توضح المسار الذي سارت فيه حركة المعرفة منذ أقدم العصور حتى انتهت الى عصرنا الحاضر ، وهي صورة لمجرى التفكير البشري في تاريخه الطويل » (١٥) ·

وقد كان هذا الافتراض قد سجل في ذلك الوقت لمجرد تبرير دراسة أنظمة التصنيف التي أعدها العلماء والفلاسفة للمعرفة ومنها التصنيف الذي أعده صاحب مفتاح السعادة نفسه · ولم يكن يدور بظني في ذلك الوقت المبكر أن الافتراض خطير وصادق الى درجة أنه يجب أن يكون أساسا لتنظيم المعرفة في خطة التصنيف ، فيدور هذا التنظيم مع الخلفيات الثقافية والفكرية لكل أمة ويكون أساسا لتصنيفها ·

ومنذ ذلك الحين ، أخذت تتجمع عندي ، عن قصد أو غير قصد ، شواهد تؤكد صدق هذا الافتراض وسلامته · وقد تجمع لدي الكثير :

١ ـ التصنيف اليوناني للمعرفة ممثلا في تصنيف أرسطو ، جعل أقسام العلوم هي أقسام الفلسفة ، اذ كانت الفلسفة اليونانية هي علم العلوم ، وكل العلوم فروع لها ·

٢ ـ التصانيف العربية اختلفت معالجتها باختلاف منحاها :

أ ـ تصانيف الفلاسفة : من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا واخوان الصفا وفيها يبدو واضحا تأثر الفلاسفة العرب بالصتنيف اليوناني الأرسطي ·

ـ ابن سينا يسمي رسالة له : أقسام العلوم العقلية وتصنيفه فيها يشبه تماما تصنيف أرسطو ·

ـ الفارابي في احصاء العلوم يهتم اهتماما كبيرا بالعلوم الحكمية الفلسفية ، وحينما يضطر الى الاعتراف ببعض العلوم الشرعية مثل علم الفقه وعلم الكلام لا يفردهما في قسم مستقل وانما يجعلهما جزءا من الفلسفة العملية وهي القسم الثالث من أقسام الفلسفة عند أرسطو ·

ب ـ تصانيف العلماء من أمثال الخوارزمي (صاحب مفاتيح العلوم) وابن خلدون ، تميز بها علوم العرب وعلوم العجم ، ولهذا فقد أعطت للعلوم العربية الاصيلة مكانها المناسب ·

جـ ـ طاش كبري زادة يخصص للعلوم العربية الصرف أربع دوحات من سبع اشتمل عليها كتابه وتصنيفه وهي تشغل اكثر من مجلدين كاملين من بين ثلاثة مجلدات · وباقي المجلد الثالث (الاول في الترتيب) للعلوم الاجنبية ·

وسوف نعود الى هذه النقطة فيما بعد ، ولكننا نخلص الآن الى العلوم العربية الأصيلة قد جاءت على استحياء في تصانيف الفلاسفة وتاهت وسط علوم الفلسفة أو تجوهلت تماما ، ولكنها احتلت مكانها اللائق في التصانيف العربية الحقة ، بل ان كثيرا من الكتب لم تسجل الا هذه الكتب فقط ·

وما أشبه غربة العلوم العربية الاسلامية في أنظمة الفلاسفة بغربتها في التصانيف الغربية الحديثة وفي عالم اليوم وفي التعديلات التي تنحو منحاها !!

٣ ـ تصنيف فرنسيس بيكون للمعرفة على التصانيف التالية لأنه كان مبشرا بالمنهج التجريبي الذي ساد العلوم الطبيعية في العصور التالية له · ولكل عصر من العصور سمته ونكهته وقد كان القرنان ١٧ ، ١٨ هما عصر العلوم الطبيعية ومن هنا تأثر التصانيف التالية ببيكون مثل ديوي وكتر وتصنيف مكتبة الكونجرس ·

٤ ـ انتشر تصنيف الاحياء في القرنين ١٧ ، ١٨ لهذا السبب أيضا ، بل وأصبح تصنيف الاحياء هو النموذج المثالي في التصنيف لفترة معينة وقبل النظريات الحديثة ·

٥ ـ النظريات الاولى في التصنيف ، والتي يمكن القول بأنها أصبحت الآن تقليدية أو قديمة كانت متأثرة بعصرها ومرتبطة به : النصف الثاني من القرن التاسع عشر : فريتشاردسون يتأثر بنظرية التطور ويزعم أن هناك

نظاما للتطور يسود الاشياء الطبيعية ، ويؤسس نظرية للتصنيف تقوم على نظام التطور الذي كان يسود العلوم الطبيعية في ذلك الوقت ، فنظام التصنيف عنده يتبع نظام العلوم ، ونظام العلوم يتبع نظام التطور .

وسايرز ثم بليس يصوغان الأسس الفلسفية والنظرية للتصنيف مستمدة من قواعد التقسيم المنطقي التي تعكس الاصل الفلسفي للتصنيف .

وبليس يؤسس نظرية للتصنيف تقوم على عدد من المبادىء ، منها مبدأ التبعية : Subordination ، ومبدأ التدرج في التخصص Gradation in Specialty . والمبدأ الاخير يشبه مبدأ الاعتماد Dependence عند أوجست كونت ، أي اعتماد العلوم على بعضها وتدرجها في التخصص والاعتماد . وهو يشبه مبدأ تزايد التعقيد والخصوصية أي الانتقال من البسيط الى المعقد أو المتشابك .

٦ ـ أنظمة التصنيف الغربية تبدأ كلها بالفلسفة ، ولا شك ان هذا أثر من آثار الفلسفة اليونانية القديمة التي تعد الحضارة الغربية الحديثة وريثة لها .

٧ ـ ترتبط العلوم الرياضية والعلم العام بالفلسفة عند بليس ، وهذا أيضا من آثار ارتباطها القديم بالفلسفة عند اليونانيين .

٨ ـ تطور توزيع الاقسام الرئيسية في خطط التصنيف الحديثة على مجالات المعرفة متأثر بالعصر الذي وجدت فيه ، وهو يتفاوت تفاوتا بينا ما بين ديوي (أول خطة حديثة ظهرت الى الوجود ١٨٧٦) الذي كان يعكس حالة المعرفة في الربع الاخير من القرن ١٩ وبين آخر خطة ظهرت وهي ط ٧ من تصنيف الكولون لرانجاناتان .

كانت المعرفة في ديوي تؤكد على المجالات التقليدية للمعرفة وهي المجالات الاستاتيكية ، فأعطى لها ثمانية أقسام من عشرة ، وبقي للعلوم البحتة والتكنولوجيات ، وهي المجالات الدينامية ، قسمين فقط .

بل أن توزيع بعض الموضوعات في التكنولوجيات ـ كالهندسة مثلا ـ يعكس هذه النظرة ، فقد شغلت الهندسة المدنية مكانا كبيرا بالنسبة للهندسة الميكانيكية والكهربائية .

أما ط ٧ من تصنيف الكولون فقد خصص معظم الاماكن للموضوعات الديناميكية تعبيرا عن روح العصر ونكهته وهو عصر التكنولوجيا • كما اهتم بالموضوعات التي تظهر عن طريق الالتحام والاندماج ، بل لا نغالي اذا قلنا ان تصنيف الكولون استجابة لحاجة المعرفة الحديثة وهي التي تنمو من خلال التركيب أو التخليق في العلم Synthesis ، ولذلك جاء التصنيف التحليلي التركيبي كحل لهذه المشكلة •

ولو أخذنا في الاعتبار نظريات فرادان في محاولة تطبيق المنهج الاستقرائي في التصنيف ومحاولات جماعة البحث في التصنيف تطبيق فكرة التحليل الوجهي على المعرفة ككل وجعلها وجهين رئيسيين : وجه الموجودات Entities ووجه الصفات Attributes ، لوجدنا أن التصنيف الذي بدأ فرعا من فروع الفلسفة عند طاش كبري زادة (فرع من العلم الالهي) قد أصبح الآن علميا يدخل في تكوينه الجزئيات والجسميات والاجزاء والاشياء والآلات أكثر من الاقسام والشعب والفروع•

٩ ـ التصنيف الهندي الوحيد (تصنيف الكولون) يعكس تأثره بأصله الهندي، فهو الخطة الوحيدة التي أفردت قسما شبه شامل للتجربة الروحية والسحر ، كما أن الجزء الثالث من الكولون قد خصص لقوائم الكلاسيات الهندية والكتب المقدسة مع أسمائها الخاصة ، سواء في الطب أو التجربة الروحية والسحر أو الفنون الجميلة أو الادب أو اللغة أو الدين أو الفلسفة الهندية ، وهذه تشكل جانبا كبيرا من الخطة •

١٠ ـ التصنيف السوفيتي يبدأ بالماركسية اللينينية باعتبار أنها أصبحت عندهم محل الدين ، ثم يصيغ ترتيبه لأقسام الخطة بعد ذلك بالتفسير المادي للمعرفة •

١١ ـ هناك أمثلة كثيرة على اختلاف التصانيف عند الأمم المختلفة بسبب اختلاف الثقافة أو العقيدة ، بل عند الأمة الواحدة في فترات مختلفة من تاريخها وتفكيرها • ومن أمثلة ذلك أن الثورة الفرنسية قد أدت الى اعادة التفكير في كثير من جوانب الحياة في فرنسا ومن بينها عالم الكتب •

د• عبد الوهاب عبد السلام أبو النور
قسم المكتبات ـ كلية اللغة العربية

الهوامش والمصادر

(١) لمعرفة العلاقة بين النوعية انظر : عبد الوهاب ابو النور : التصنيف عند العرب · (في : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم · المقدمة · جا · ص ص ٤٣ ـ ٧٦) ·

(٢) ناقشنا هذا الموضوع بالتفصيل في : دراسة مقارنة لبعض خطط التصنيف البليبوجرافي لاستنباط الأسس لخطة عربية للتصنيف في الفصل الخاص بالعلاقة بين تصنيف المعرفة وتصنيف الكتب ·

(٣) انظر في ذلك مثلا :
Vickevy, B.C. Classification and Indexing in Science

(٤) انظر في ذلك : عبد الوهاب ابو النور : التصنيف لاغراض استرجاع المعلومات · ويلاحظ ان العنوان الاخير يكاد يتطابق مع التسمية فيما عدا حذف كلمة تنظيم · ود اوضحنا في الكتاب ان الاسترجاع يتضمن التنظيم لان الاخير بغرض الاسترجاع · (تحت الطبع) ·

(٥) دراسة مقارنة لبعض خطط التصنيف الببليوجرافي لاستنباط الأسس لخطة عربية للتصنيف · رسالة الماجستير · كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٧ ·

(٦) عالجنا هذه القضية بالتفصيل في دراسة اخرى هي : التعديلات العربية للتصنيف العشري لديوي · القاهرة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٧٤ · وثيقة رقم ٤/١/٧/٣ تنفيذا لتوصيات مؤتمر الاعداد الببليوجرافي الاول الرياض : ٢٤ نوفمبر / تشرين ثان ـ ديسمبر / كانون اول ١٩٧٣) ·

(٧) عبد الوهاب ابو النور · التصنيف الببليوجرافي لعلوم الدين الاسلامي ، دراسة في منهج اعداد انظمة التصنيف مع تطبيقه في اعداد نظام تصنيف للدين الاسلامي · رسالة الدكتوراه · القاهرة ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ · (نشر في دار الثقافة للطباعة والنشر) ·

(٨) اتخذنا هذا التصنيف اساسا لتنظيم « الببليوجرافيا الموضوعية العربية ، علوم الدين الاسلامي » وهي تحليل لمقالات المجلات الاسلامية تضم ما يقرب من ستين الفا من المقالات ٠

(٩) قرارات وتوصيات وبحوث مؤتمر الاعداد الببليوجرافي للكتاب العرب ٠ الرياض ، ١٩٧٣ ٠ وانظر بحثنا لهذا المؤتمر وهو بعنوان : نظم التصنيف في الوطن العربي ، المشكلات والحلول المقترحة ٠ ص ص ١٥١ ـ ٢٤٧ ٠

(١٠) اعددنا دراسة عن عملية التجريب تشرح العملية وكيف اجريت في ٤٠ مكتبة في الوطن العربي كله وتناولنا فيها كل النقاط والمناقشات التي تمت في هذا الصدد وقمنا بالرد عليها : تجريب الخطة العربية للتصنيف ، وعلم الدين الاسلامي ٠ (طبعة خاصة) ٠

(١١) عبد الوهاب ابو النور : التصنيف لاغراض استرجاع المعلومات (تحت الطبع) ٠

(١٢) شيرا ، جيس وايجان ، مرجريت ، الفهرس المصنف ، اسسه وتطبيقاته ، ترجمة عبد الوهاب ابو النور ٠ ص ٧٠ ٠

(١٣) انظر : الخطة العربية للتصنيف ، الأسس والاطار العام : الفصل الثاني كله ٠

(١٤) كانت هذه النقطة بالذات مثار مناقشة بين الكاتب وبين احد المكتبيين الاردنيين تعقيبا على محاضرة القاها في جمعية المكتبات الاردنية يوم ٥ مايو عام ١٩٧٦ ٠

(١٥) مفتاح السعادة : ج١ ، ص ٤٥ ٠